

المحاكم المختلطة في مصر

لمحة تاريخية

ومعلومات لم تنشر بعد

هذه لمحة تاريخية مقتبسة من بعض الخطب التي خطبت في ٢٧ شباط ١٩٢٦ في حفلة يوبيل المحاكم المختلطة بالاسكندرية ولا سيما خطبة جناب المسيوفنديوش النائب العمومي في المحاكم المختلطة نشرها لقيمتها التاريخية بمناسبة الاحتفال بانقضاء خمسين سنة على انشاء هذه الحياة القضائية التي لم يبق لها مثيل في الدنيا الا في بعض انحاء الصين وقد زالت مثيلاتها الاخرى في البلدان التي قامت فيها

ولا تنولى البحث سيف البواعث التي بعثت على انشائها في اول الامر فهذا شيء يطول شرحه ويأخره وحسبنا ان نقول انه في انشاء حكم المغفور له الخديوي اسماعيل اقدمت الحكومة المصرية ووافقتها الجاليات الاجنبية موافقة تامة على اقتراح انشاء طراز من المحاكم القانونية الدولية يفوز بثقة اوروبا ويحول سلطة الحكم في القضايا المدنية التجارية التي يقيمها الاجانب المختلفو الجنسيات بعضهم على بعض والتي تقام بينهم وبين المصريين أو الحكومة المصرية

وكانت لتوبار باشا يد كبيرة في نجاح هذا المشروع نجاحاً افضى الى تحقيقه فقد ظل نحو عشر سنوات — اي منذ ما شرع في بذل مساعيه في سنة (١٨٦٢) — يعاني مشقة النضال عن هذا النظام القضائي الجديد ويحمل على عاتقه عبء الدفاع

عنه في عواصم اوربا المختلفة الى ان رضيت اوربا اخيراً بمهارته السياسية ومقدرته على الاقتناع وصبره الجميل بتأليف لجنة دولية لهذه الغاية وافرت اللجنة المشروع في النهاية كما سيحي.

وكان للخديوي اسماعيل نصيب غير يسير في ذلك العمل ونجاح المشروع . ولقد قوبل بعض المؤرخين الى ان من جملة البواعث التي بعثت على المشروع ان نوبار باشا كان يقصد ان يتخذة شكيمة لاستبداد ذلك العاهل وتقلبه مع الاهواء فان صح ان نوبار باشا كان يضرع هذا القصد حقيقة فيكون قد افلح كثيراً في اخفاء قصده عن مولاه اذ يظهر الآن من المراسلات التي تبودلت بينهما من سنة (١٨٦٧) الى سنة (١٨٧٣) والتي بقيت محفوظة الى اليوم في قصر عابدين — وقد دارت عليها خطبة المسيو فرمن فنند نبوش النائب العمومي في المحاكم المختلطة — ان اسماعيل باشا كان شديد الاهتمام بالمشروع وانه وهو في مصر كان يدير المفاوضات التي يتولاها وزيره في اوربا وكان يفاوض بنفسه بعض وكلاء الدول الاجنبية في القاهرة وفي الاستانة في انشاء اقامته فيها

ولقد اثار انتراح انشاء قضاء دولي في مصر ارباباً ومعارضة في اول الامر في كثير من الدوائر في خارج مصر فانبرى الخديوي ووزيره لازالة هذه الريب والظنون واقتناع المعارضين بعدالة مطلبهما

ومما يحسن ذكره ان المراسلات التي ظهرت الان لاول مرة تميظ اللثام عن هذه الحقيقة المبهمة وهي ان بث الدعوة (البروباغندا) بطريق النشركان أمراً معروفاً في ذلك الوقت فقد استمعين إليهم ادمون آبوت كبير انجال فولثير وكان مشهوراً بانه من كبار الكتاب في مقابل ٣٥٠٠٠ فرنك فظهرت على صفحات مجلة « العالمين » في عددها الذي صدر في ١٥ فبراير سنة ١٨٦٩ رواية عن الحياة المصرية اسمها « احمد الفلاح » تضمنت امارات عديدة وضعت بغاية اللبائبة الى نظام القضاء

الفنصلي الذي كان موجوداً اذ ذلك والى العلاج الذي كان اسماعيل ونوبار يفكران فيه

وكانت فرنسا أولى الدول التي فوشت في الامر فرفضت الاقتراح لان اللجنة القضائية التي احالته الحكومة الفرنسية اليها فرضت قيوداً قضت على المبادي الاساسية فيه ولكن اليأس لم يطرُق الى اسماعيل ونوبار فطلبوا تأليف لجنة دولية تعقد في مصر لدرس هذا المشروع وعهد الى نوبار الذي كان لا يزال في باريس في مهمة السعي الى نيل موافقة دول اوربا على ذلك فاعاد الكرة على الحكومة الفرنسية ولكنها رفضت بتاتا

ومن ثم ذهب نوبار الى انكلترا واجتهد في فتح باب المسألة في مجلس النواب واتفق انه لم يجد في الاروقة العضو الذي كان يروم مقابلته فتبعه الى الدور الاعلى ركضاً حتي التي به واستأله الى مساعدته ثم سافر الى منسنة لانه يعلم ان للمحاكم الجديدة صلة متينة بالقطر وهناك اتصل بتجار منشتر وأقنع جماعة منهم بان تنولي استقالة الحكومة الى المشروع . وكتب مقالات نشرتها التيمس والسندرد :المورننج بوست واخيراً قابل الماورد سلتاني وبسط له المشروع وما فيه من المزايا فكلت جهوده بالنجاح ووافقت انكلترا على اللجنة الدولية بشرط ان تتخذ قرار اللجنة الفرنسية نقطة ارتكاز وان لا تمس الامتيازات

وفي الوقت عينه تلقى نوبار من اسماعيل باشا خبراً باذنه فتحدث مع الفنصل الجنرال لاتحاد حكومات المانيا الشمالية معاهدة مبدئية بالخير وبناء على تعليماته غادر لندن (في يوليو سنة ١٨٦٨) الى برلين حيث قابل بسمرك ودفع اليه كتاباً شخصياً من مولاه وفي اليوم التالي اعلنت حكومة الاتحاد استعدادها لتعيين مندوب عنها في اللجنة الدولية ولكي تزيد المانيا موافقتها هذه تأكيذاً اهدت الي الخديوي اسماعيل مدفعاً من مدافع كروب واسمحيته بكتاب من المردلبروك شكر فيه المستشار قال فيه

ان هذا المدفع من المدافع التي جربت في انغرس وثبت ان قبله تخترق امن الدروع الفولاذية

فسر اسماعيل بهذا الفوز وامر نو بار بالذهاب الى ايطاليا فاطاع الامر ولكنه عرج في طريقه على مرسيليا واقام فيها اياماً حمل في اثائها غرفتها التجارية على ان تكتب للحكومة موبدة مشروع مصر وكان يرجو بذلك ان يؤثر صوت جنوب فرنسا في افكار حكومة باريس

وبلغ نو بار فلورنسا في الوقت الذي تلقى فيه خبر حبوط جنابة دبرت لاغتيال حياة اسماعيل في الاسكندرية فأنشأ ذلك عطفاً على البلاد التي يمثلها وفي جو هذا العطف فتح باب المحادثة مع الكونت منابريا رئيس الوزارة فاستقبله منابريا وقتاً ريثما ينعم الظفر في المشروع وبعد ذلك بايام التقى بنو بار في تياترو وابلغه ان ايطاليا قبلت فكرة اللجنة الدولية

فاقترح حينئذ نو بار على اسماعيل ان يأذن له بالذهاب الى فيينا ولكن اسماعيل منعه من ذلك لانه كان يفوض سفراء النمسا وروسيا واميركا في الاستانة حيث كان مصطفاً فقبلت روسيا وعاد نو بار الى باريس ليستأنف المفاوضة وفي الوقت عينه ارسل اسماعيل نجله الامير حسيناً ليتم علومه في باريس متظاهراً باخبار التربية الفرنسية وكان ذلك منه عن دهاء حاسباً بذكائه ان هذا العمل ينشئ جواً ملائماً لغرضه وهكذا كان واستميل الامبراطور والامبراطورة وبواسطة الامبراطورة برز على المسرح ظهير جديد هو فرديناند دي لاسبس فكتب بايعاز الامبراطورة الى وزير خارجية فرنسا راجياً منه ان يحيل مسألة القضاء المختلط الجديد الى لجنة دولية في مصر واستحلفه بذلك المشروع العظيم (مشروع قناة السويس) الذي كان يوشك ان يفتتحه وبما لفرنسا من مصلحة في علاقتها با مصر بين والاجانب

قال تشديد البلاط الفرنسي كل هذا التشديد الى استقالة المسيو دي موسثيا

وزير الخارجية وكان معارضا صعب المراس للمشروع وبلغ من سرور اسماعيل بذلك ان ابرق في الحال الى نوبار بان يوسط الحكومة الفرنسية في توصية الحفار جكچار على صنع تمثال لمحمد علي مؤسس الاسرة العلوية لكي ينصبه في ميدان القناصل بالاسكندرية.

وسافر نوبار على جناح النعمة الى مصر ليتلقى اوامر مولاه ولما عاد الى باريس وسط سفير انكلترا وابطاليا في التشديد على المسيو دي لافاليت وزير الخارجية الجديد وفي الوقت عينه طلب من دلبس ان يحمل الامبراطورة على مواصلة اهتمامها بالمشروع وعلاوة على ذلك تمكن من الفوز بتأييد الامير نابوليون

وعلم نوبار في اثناء ذلك من الجنرال فلوري ياور الامبراطورة ان لها نفوذا عظيما على دي لافاليت وانه اذا رام الوصول الى نتيجة مرضية فعليه ان يلتزم مقابلتها وبلغها ان اسماعيل امره ان يتأكد هل تريد جلالتها زيارة مصر لمناسبة افتتاح اقنال لانه يريد ان يعدها استقبالا لائقا بمقامها فايرق نوبار بذلك للقاهرة وجاءه امر اسماعيل بالموافقة فالتمس مقابلة الامبراطورة فاعربت عن سرورها بما اقترحه عليها

وفي نحو هذا الوقت وقعت في يد اسماعيل ورقة رابحة او سحبت له فرصة حسنة ذلك ان شركة قناة السويس طلبت منه — وكانت الحكومة الفرنسية تؤيدها في الطلب — ان يمنحها اذنا ببيع صفقة كبير من الارض وكان لابد من هذا الاذن طبقا لشروط الامتياز فوضي اسماعيل بشرط ان تنضم فرنسا الى اللجنة الدولية وفي ٢٦ ابريل سنة ١٨٦٩ اي بعد عشرين شهرا قضيت في الكد وبذل الحيل وقعت الحكومة الفرنسية بقبولها

وعقد المؤتمر الدولي في القاهرة من ٢٦ اكتوبر سنة ١٨٦٩ الى ٥ يناير سنة ١٨٧٠ برئاسة نوبار باشا وكانت آراؤه بما يرمتها في جانب المشروع فيما يختص

بالاختصاص المدني الذي يخول للمحاكم ولكنها ارجأت مسألة الاختصاص الجنائي وان كانت قد سلمت بمبدأه.

وجرت بعد ذلك مفاوضات اخرى بشأن الاختصاص الجنائي الا ان الحرب السبعينية بين فرنسا والمانيا قطعتهما فلم تستأنف الا بعد سنتين وكان اساعيل لا يزال شديد الرغبة في اتمام المشروع فكتب في ١٨ سبتمبر سنة ١٨٧٢ الى نوبار وكانت لا يزال في القاهرة بانه وان كان لا يتغلي عن طابع الاختصاص الجنائي الذي من دونه لا تكون للمحاكم المدنية سلطة ما يؤثر المحافظة على الحالة الزاهنة (الاستانوكو)

وحينئذ سافر نوبار الى الاستانة وفيها تلقى التعليقات بان يفتح باب المفاوضة مع ممثلي الدول الاجنبية وكانت ابفاده اليها لكي يهدي نائرة غضب الباب العالي الذي استاء من المفاوضة المباشرة بين مصر والدول فأرسل احتجاجا تهديديا الى الخديوي

وقفت فرنسا عقبه في الطريق للمرة الثانية فانه ايضا كان نوبار يبذل جهده في الوصول الى اتفاق في الاستانة كان اساعيل يعرض على الحكومة الفرنسية رأيه الخاص بواسطة دي لسبس كما انه عرض هذا الرأي على ملك ايطاليا بكتاب وعلى الدول الاخرى بواسطة ممثليها في مصر واخيراً تم الاتفاق في اواخر سنة ١٨٧٢ على ان يكون الاختصاص الجنائي للمحاكم المختلطة يقتصر على الجرائم التي تنكبها مستخدمو المحاكم وموظفوها في اثناء قيامهم بواجباتهم الرسمية وجرائم الطعن على المحاكم ومخالفات بعض لوائح البوليس

وعقدت في الاستانة من ١١ يناير الى ١٥ فبراير سنة ١٨٧٣ لجنة وضعت تفاصيل هذا الاختصاص الجنائي وأقرت القوانين وبعد مناورات عديدة وحيل

من جانب الدول فيما يتعلق باقتسام مناصب القضاء فيما بينها وطريقة تعيين
القضاة افتتحت المحاكم في سنة ١٨٧٦

وجميع الدول صاحبة الامتيازات ممثلة في هذه المحاكم وهي انكلترا وفرنسا وإيطاليا
واميركا واليونان وبلجيكا ونروج والبرتغال واسبانيا واسوج وهولندا والدنمارك أما
المانيا والنمسا فضاءتا حقوقهما بسبب الحرب وقسمت مناصب قضاتهما بين انكلترا
وفرنسا وإيطاليا

وتتألف كل دائرة من دوائر محكمة الاستئناف من ثلاثة من المستشارين
الاجانب واثنين من المستشارين المصريين وفي المحاكم الابتدائية من قاضيين اجنبيين
وقاض مصري

وقد بلغ عدد الذين تولوا منصب رئاسة محكمة الاستئناف حتى الآن أحد
عشر رئيساً: اثنان نمساويان واوّلها السيولابنا الذي كان له نصيب في تنظيم
المحاكم في بادئ الامر . وإيطاليا واحدهما تولى هذا المنصب ١٣ سنة .
وفرنسويان والماني وانكليزي وبرتغالي وبلجيكي ويوناني وهو الرئيس الحالي

أما منصب النائب العمومي فقد كاد يصبح بلجيكيًا فان التسعة الذين تولوه — ما خلا
ثلاثة — كانوا كلهم بلجيكيين وفي جملتهم النائب الحالي ومن الثلاثة غير البلجيكيين
اثنان فرنسويان وقد صادف تعيينهما معرضة بحجة ان هذا المنصب يجب ان يكون
لدولة صغرى

اهم القضايا التي حكمت فيها

وقد طلب من المحاكم المختلطة في أحياء كثيرة ان تفصل في قضايا على اعظم
جانب من الاهمية ونصاب مالي عظيم وكانت الحكومة المصرية احيانًا احد فريق
الخصوم ومن القضايا التي كانت الحكومة فيها خصما قضية الجزية العثمانية وقضية شركة

هلميو بوليس التي جاء الاستاذ ملير انت (رئيس جمهورية فرنسا السابق) والاستاذ
ييكار الى مصر خصيصاً للمرافعة فيها. وقضية السودان التي نشأت عن تصريح
صندوق الدين العمومي بدفع ٥٠٠٠٠٠٠ ج. من الاحتياطي للحكومة لاجل فتح
السودان وكانت بعض اعضاء الصندوق معارضين في ذلك فرفعوا الامر الى
المحاكم المختلطة فحكمت على الحكومة المصرية برد المبلغ

— المقطع —

قرأ السري بن المغلس على مؤدبه « ونسوق المحرمين الى جهنم ورداً » فقال:
يا استاذ ما الورد فقال لا أدري فقراً « لا يملك الشفاعة الا من اتخذ عن الرحمن
عهداً » فقال : يا استاذ ما العهد فقال : لا ادري فقطع السري القراءة وقال اذا
كنت لا تدري فلم غررت بالناس فضر به المؤدب فقال السري يا استاذ الم
يكفك الجبل والغرور حتي اضفت اليهما الظلم والاذى فاستحله المؤدب وتاب
الى الله تعالى من التأديب واقبل على طلب العلم وكان يقول انما اعتقني من
رق الجبل السري .